ركائز الإيمان بين العقل والقلب

المؤلف: الشيخ محمد الغزالي

الناشر: دار الشروق- القاهرة – 2001م.

عرض: مصطفى نور الدين القاسمي

**مقدمة**

يهتم هذا الكتاب بالحديث عن موضوعات في الثقافة الإسلامية - حريٌّ بكل مسلم أن يعرفها ويطلع عليها- من خلال رؤية إسلامية عميقة وصحيحة للمؤلف، ترتكز على فهم واع للكتاب والسنة، بعد أن طال هذه الموضوعات كثير من الانحراف في معالجتها.

يتحدث المؤلف حديث الشفيق على حال ثقافتنا الإسلامية، فيقول: لست مستريحا لحاضر الثقافة الإسلامية، ولا مطمئنا على مستقبلها، فهي لا تعطي صورة دقيقة ولا كاملة للإسلام؛ كما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة، وكما سار به الأسلاف العظام في أرجاء الأرض. وهي خالية وفقيرة من العناصر التي تكوِّن المسلم القدير على مواجهة ذلك العصر وأحداثه، وعلى استبطان مقادير من اليقين والحماسة والرشد والبصيرة تجعله ينطلق في كل ميدان ويمد رسالته إلى كل أفق.

ثم يتحدث عن الإيمان الجبان المنعزل الذليل الذي يعيش في كنف المبادئ الأخرى، وهذا الإيمان لا يستقيم مع منطق صاحب الرسالة الذي جعل اليد العليا خيرا من اليد السفلى، وجعل المسلم يعطي ولا يأخذ.

**الهدف من هذا الكتاب:**

قام المؤلف -كما يقول- بوضع هذا الكتاب مستهدفا أمرين:

1. إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة.
2. تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القرّاء على خبيئها حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يوما.

ثم يقرر أن خدمة الثقافة الإسلامية لا تزال مجالا قليل الرواد كثير الأعداء، وأن حالة المسلمين تستدعي جهود العشرات والمئات من المفكرين الخلص.

**مكونات الكتاب:**

يتكون هذا الكتاب من مقدمة **وأربعة وعشرين موضوعا**، هي كالآتي:

مع الباحثين عن الحق – التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي- الحقائق وحدها من أجل الإنسان- العلم ظهير الإيمان- الإنسان بين المادية والإيمان- نهج أرشد في دراسة الإنسان- نعم: روح وجسد.. ودنيا وآخرة – الإيمان بالغيب ليس إيمانا بالوهم ولا إيذانا بالفوضى – الهجرة إيمان بالمستقبل وثقة في الغيب- التصوف الذي نريده - حقيقة وشريعة! – صدق في المعرفة ووحدة الوجود – وحدة الوجود خرافة!! – بين التصوف الإسلامي والتصوف الأجنبي – ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة – وصية جعفر الصادق لأحد المريدين – فن العزلة والاختلاط – ينابيع التوحيد – نبوة وكتاب وأمة وارثة – محمد رحمة للعالمين – حول احتفال المولد الشريف- أشرف وظائف المرأة – خوارق العادات.. معناها ودلالتها – من مزاعم الروحية الحديثة.

**تلخيص موضوعات الكتاب:**

**مع الباحثين عن الحق**

يشير المؤلف إلى أن التدين من أعظم دعائم السلوك الإنساني؛ ولكن المرء لا يختار ابتداء الدين الذي يسير وفق تعاليمه!، فالبيئة التي ولد فيها هي التي تزوده بأركان الدين، وتوثق به مشاعره. ويبدأ الإنسان جهدا عقليا صامتا للمواءمة بين ما ورث، وبين استقلاله الفكري الواجب!

ويتساءل المؤلف: هل الحق هو وجهة النظر التي تكونها الوراثات والبيئات مهما كانت أثيرة لدى أصحابها ومبرأة من كل عيب؟ والإجابة السريعة: لا! فكم من مسيء خدعته نفسه، فظن القبيح حسنا، واستنبطه عقيدة، ودعا إليه مذهبا، ومضى في دروب الحياة يظهر به ويقاوم ما عداه؟! والعلاج الأنجع لهذا التفاوت الشائع بين منازع الخلق وغايتهم هو تمكين الأفكار والمشاعر أن ترى ما لدى الآخرين، وأن تعرفه على مهل.

ويضيف المؤلف: لهذا يجب أن تتاح فرص كثيرة للدراسات النظرية التي تجعل " الإنسان" موضوعها الفذّ. إن هذه الدراسات ينبغي أن نتوصل بها إلى إثبات الإيمان الحق. ومن أعظم الجهود البشرية في هذا المجال كتاب (الإنسان ذلك المجهول)، لـ " أليكس كاريل". وروعة الكيان الإنساني لفتت مفكرينا من قديم؛ ومن ذلك ما تحدث به " العز بن عبد السلام" الصوفي.

ويذهب المؤلف إلى أن العصر الحديث يمتاز بأنه تخلَّص من الطرق العقيمة التي سارت عليها الفلسفات القديمة في فهم الإنسان، وطبيعة وجوده، وغيايته من الحياة. وأنه اعتمد على أسلوب علمي رائع. ومن هنا نستطيع القول: إن هذه الدراسات تقرب الناس من الدين، لأنها تقربهم من الفطرة. وعندما ينتفي من الحياة الإنسانية الوهم والعوج، فلن يبقى إلا شيء واحد، هو الإيمان. (إن ربي على صراط مستقيم) [هود: 56].

إن" الإنسانية المجردة" هي التي تستهدف كرامة الإنسان بعيدا عن فروق الجنس والدين واللغة واللون وما شابه ذلك. وهناك قلة صادقة من الناس تعمل في هذا الميدان الواسع وتكره النزاع الدموي الذي نشب بين شتى الأديان والاجناس، وتعمل على تجنيب البشر أخطاره.

والإنسانية- التي يقصدها المؤلف- والتي نعطيها فضل حرمة ورعاية هي التي تدرس: العقل والقلب والبدن، وتبحث بأدب تواضع عن الحق والخير، والتي تتناول قضايا الإيمان آثاره النفسية والاجتماعية ببصيرة مفتوحة، وحرية واسعة. والدين هو المصدر الأوحد للحقيقة الكاملة في هذا المجال.

وأمثل السبل للتعامل مع الإنسان هو الجمع بين الإحاطة بالوحي المعصوم، وبالفكر الإنساني الذي تعمق في بحث الإنسان بكل مقوماته وملكاته. فالصلاح الحق ينشأ عن صحة النفس وبراءتها من أسباب السَّقَم.

**التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي**

هناك شعور عام بأن العالم قطع مراحل شاسعة في طريق التقدم العقلي، لكنه تخلف، أو – على إحسان الظن- بقي مكانه من الناحية الروحية.

إن الإنسان عقل وقلب، والظن بأن يقظة القلب ما تتم إلا مع خمول الفكر وازدراء الدنيا، خطأ فاحش. والظن بأن سيادة العقل ما تتم إلا بتضحية الإيمان وإيحائه خطيئة كبيرة. إن كثيرا من أهل الدين أساءوا إلى ربهم وإلى أنفسهم يوم بخسوا العقل قيمته، وافتعلوا العراقيل أمام حركته. لقد أخطأ بعض المتدينين، فظنوا زكاة الروح ما تتم إلا بدمار الجسد، وضمان الآخرة ما يتم إلا بضياع الدنيا. وتجهموا لأسباب الحياة والارتقاء، ووقفوا بعيدا يرمقون الحضارة الإنسانية الزاحفة.

إن كل تدين يجافي العلم، ويخاصم الفكر، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة، هو تدين فقد صلاحيته للبقاء. التدين الحقيقي إيمان بالله العظيم، وشعور بالخلافة عنه في الأرض، وتطلع إلى السيادة التي اقتضتها هذه الخلافة.. أعني السيادة على عناصر الكون وقواه.

التدين الحقيقي ليس جسدا مهزولا من طول الجوع والسهر، ولكنه جسد مفعم بالقوة التي تسعفه على أداء الواجبات الثقال، مفعم بالأشواق إلى متاع الحياة. عظمة الإيمان إنما تتألق وسط دنيا يملكها المجتمع المؤمن، ويستطيع الانغماس في فتنتها، ومع ذلك فهو يحكم نفسه، ويحكمها باسم الله. عظمة الإيمان تعتمد ابتداء على فقه في آيات الكون، وعظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاءة، بل يربو عليه.

إن الحضارة الحديثة تقوم على عبادة الحياة الدنيا، والاستكثار جهد الطاقة من لذاتها؛ وهذه الوثنية الجديدة، هي الطابع الدميم للحضارة الحديثة. وسبب ذلك كما يقول- المؤرخ الإنجليزي: توينبي- "انحسار الأديان الكبرى المعروفة (اليهودية والنصرانية والإسلام) وظهور عبادة " القوة البشرية" مرة أخرى في العالم الحديث".

والتياران اللذان يغلبان على دنيا الناس: التيار الغربي، والتيار الشيوعي، تتضاءل فيهما أو تتلاشى صلة الأرض بالسماء، وتنحصر الأفراد والجماعات داخل مآربها الخاصة. والراشدون من رجالات الفكر يتفقون على أن شفاء العالم من سقامه مرتبط بعودة الإيمان إلى القلوب الفارغة، وعودة الأديان الكبرى إلى مكانتها المفقودة. ولعل العرب يقدمون للإنسانية هذا الدواء، ويؤدون الرسالة التي تخيرتهم لها السماء.

**الحقائق وحدها من أجل الإنسان**

يجب إحكام المراقبة على الطرائق التي تؤثر بها فكرة على فكرة، واتجاه على اتجاه، فإن الغش في المقاييس العقلية أكبر شيوعا من الغش في موازين التجار الخونة. وما أكثر الوراثات والإشاعات والأفهام التي لا تثبت على التمحيص، وهي عند أصحابها عقائد مكينة؛ ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى المنطق العلمي الصارم في تقويم كل شيء، وترتيبه حسب منزلته من اليقين.

لقد كان نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين في مزدحم الآراء التي تلقاهم. لا شك أن القرآن الكريم من وراء هذا السعي الحميد.

يقول المؤلف: ولقد رأيت بعد إنعام النظر واستقراء الأحداث أن الباطل لا يسير في الأرض بقواه الذاتية، وإنما تسيره عوامل الرغبة والرهبة، وتسنده الرشا والسيوف، وعندما تتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه. أما الحق فإن تجاوبه مع فطرة الله في النفوس يجعله مقبولا مستحبا، ويقدره على تخطي العقبات واجتياز السدود، أي أن الحق لا يخشى الحرية أبدا، إنما يخشى الحريةَ العوجُ والجهل والبغي في الأرض بغير الحق. ومن ثم فنحن مع توفير الحرية التامة في أرجاء المجتمع. والحرية التي نعشق هي تلك التي تُحَدُّ من جهاتها الأربع بما لا يضر الآخرين. إنه الجو الذي يعيش على تمحيص الحقيقة، ويساعد على قبولها دون قسر أو ختل.

والعلم بالإنسان ورسالته، وضمان حاضره ومستقبله، والتسامي به مبنى ومعنى جهد رحيب الدائرة، بل إن العلم بالإنسان لا يصح إلا مع خبرة محترمة بعلوم الكون والحياة، وإحاطة حسنة بجملة الحقائق المادية والتاريخية والاجتماعية. ولا غرو فالإنسان أثمن درة في هذا الوجود والقصور لا يجدي في فهم قضاياه. لقد كرم الله الإنسان من قديم، وفضّله على صنوف البر والبحر.

ليس شرف الإنسان بمدى سطوته في الأرض، بل بمدى تنمية مواهبه العليا وملكاته النبيلة. ولو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصيب كريم في ميدان" علم الإنسان" ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحي، فإن كل علم للإنسان يجب إرساء قواعده على الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى امتداد مرحلة العمر فترة اختبار لها ما بعدها.

**العلم ظهير الإيمان**

لم تخل الحياة في الماضي- ولن تخلو في الحاضر والمستقبل- من أناس ينكرون الألوهية ويرفضون الدين، ويريدون أن يعيشوا مبتورين عن الأصل الذي انبثقوا منه، مخلدين إلى الأرض التي درجوا عليها، غير مفكرين في آخرة أو ثواب أوعقاب!

والواقع أن كفرهم مجموعة من الأوهام والتخليطات لا تمسكها إلا الجراءة على الحق. والزعم أن العالم نشأ من تلقاء نفسه كلام كألاعيب السحرة يزدري العقلاء خباياه، لأن أوله يناقض آخره، وآخره يكذب أوله.

يقول المؤلف: أود أن أنفي بشدة وبقوة ما يدور على أفواه البعض من أن البيئة العلمية تربة خصبة للإلحاد. إن هذه شائعة مفتراة لا يليق أن نستمع إليها. وهدف الذين روجوها الإيهام بأن الإيمان ينبت في الأوساط الجاهلة، ويستخفي في الأوساط العاقلة.

وهذه فرية مفضوحة، فإن الإلحاد آفة نفسية، وليس شبهة علمية. والذين كفروا بالله الحق لم ينشأ كفرهم عن استقامة التفكير؛ إنما نشأ كفرهم عن عوج في الفطرة، وخطل في الرأي وضلال في الخطوات.

إن الإيمان الذي يلده العلم الصحيح، هو الإيمان بالله الفرد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد. هو الإيمان بالله الواحد المحيط بكل شيء الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

إن القول بحدوث العالم وحده، ومن تلقاء نفسه، تخريف، وأنه لا بد من وجود إله عالم مقتدر حكيم جبار..

## إن في كل شيء آية تدل على الله، آية تنفي الريبة، وتورث اليقين، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20-21]. وأمر أولئك الملحدين لا يتجاوز قول الكتاب الكريم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:8].

ثم إن أسلوب القرآن الكريم في الحديث عن الله وتصوير جلاله ومجده يتطابق مع ما يوجبه العقل للخالق الكبير من عظمة وتقديس! ومن هنا، فإن تراث الوحي الإلهي عندنا، تقرأ حقائقه، وكأنها نتائج لمقدمات عقلية خالصة وضعها الفكر الرصين! وذاك ما يجعل العلم والإيمان قرينين لا ينفكان!

**الإنسان بين المادية والإيمان**

من مواريث التربية الدينية في مشاعرنا ووجهاتنا الإيمان بامتداد الحياة، وأن الموت ليس عقبة تقُفُّها(تجففها)، وإنما هي مرحلة تتحول عندها إلى الحياة الأخرى.

والواقع أن الإنسان المرتبط بالدين، هو الذي يحس نعمة الوجود، ويدري دراية مطمئنة من أين جاء؟ وإلى أين يصير؟ أما الشخص المادي البحت الذي يؤمن بجسد لا روح معه، ودنيا لا آخرة بعدها، فهو مبتور الحس مشوه البصيرة، وفكرته عن الحياة تهوي بقيمة البشر إلى حضيض بعيد.

يقول المؤلف: والذي ننبه إليه أن المؤمن لا يعيش لغرائزه الدنيا، ولا لحاجته العاجلة. وإنه واثق من لقاء الله بعد الموت ثقته من وجوده في هذه الدنيا. وأن جسمه يمثل جزءا من وجوده لا الوجود كله، وأن الله لم يتركه سدى، بل رسم له طريقا مستقيما، وأمره ألا يحيد عنه. لكن البشر من قديم احتجبوا وراء أسوار المادة الظاهرة، وظنوا الوجود لا يعدو هذه المحسوسات، وكذبوا المرسلين حين حدثوهم عن اليوم الآخر. إن هذه المادية الصماء ليست وليدة التقدم العلمي الحديث كما يهدف البعض، إنها وليدة الجهل القديم، وهو جهل لم تنقشع ظلمته عن طائفة من الناس. المضحك في مزاعم الوجوديين والماديين، وكل كافر بالسماء، أنهم يحسبون أنفسهم تقدميين وأن غيرهم متخلف، من بقايا القرون الجامدة.

**نهج أرشد في دراسة الإنسان**

ينبغي أن يصرف الإنسان نشاطه من محاولة إدراك الكُنْه إلى محاولة التعرف على الخصائص والظواهر الميسورة. فمن العبث بذل الجهد لتفسير حقيقة الروح، والعقل، وسر الحياة الناشطة الدائبة داخل الجسم الإنساني. إن الدين عندما قرر العلاقة بين الإنسان وربه لم يزد عن أن يعرف الإنسان بالله عن طريق صفاته الجليلة وآياته البينة ثم بيّن للإنسان ما له وما عليه. فالدين هو النهج الفذ الذي يحدد للإنسان وظيفة في الحياة، ويسمو به عن الدنايا، ويدربه على الفضيلة، ويرشحه لرضوان الله، ويخلده في رحمته. وقد حاول الإنسان الشرود عن هذا الصراط المستقيم، تارة بالبحث في ذات الله، وتارة بالبحث في أغوار نفسه هو؛ فغاص في أوحال الفلسفة. ولو أن الإنسان التزم معالمه المشروعة، ووعى هدايات الله وحدها، ولم يجمح مع الخيال؛ لكان تاريخه على ظهر الأرض أشرف مما كان. أما الترويج للإلحاد باسم البحث العلمي ونظرياته فهو خداع صغير. ولا بد من إعادة النظر في طرائق الدراسة الكونية والإنسانية، فإن بناءها على التفكير المادي المحض غش علمي يجب أن يطارد.

يقول المؤلف: ونحن لا نرتاب في أن المستقبل للإسلام، يوم يعرض على الناس نقيا كما جاء من عند الله، ويوم يرى الناس أمة تحيا به ظاهرا وباطنا، وتقدم من سلوكها الأسوة الحسنة والتطبيق الصحيح.

**نعم: روح وجسد.. ودنيا وآخرة**

الإنسان جسم حي وعقل واع، وهو في جسمه يشبه صنوفا من الحيوان الأعجم، وفي عقله يشبه الجن والملائكة، ويبقى أن الإنسان- مع شبهه المقرر- هو كائن متميز بخصائصه العليا والدنيا، وله وظيفة انفرد بها وارتبطت بأوصافه المادية والأدبية جميعا. والملحوظ أن الإنسان السوي القوي أشد تجاوبا مع الحياة وأقدر على تذوقها، وأداء رسالتها، وإقامة حق الله فيها. وكم تضطرب أحكام الإنسان على الأمور، لان أوجاعا استبدت به، وأرهقت أعصابه!

إن العافية السابغة نعمة كبرى على الإنسان، بل نعد من مرشحات الكمال البشري خلو الإنسان من الأمراض المنفرة، والعاهات المزرية. ومن ثم فكل عداء للبدن لا يقوم أصلا على تفكير سليم، وليس له أساس في ديانات الله كلها. وكما أقر الدين وظيفة الجهاز الهضمي أقر وظيفة الجهاز التناسلي، وأباح للبشر أن ينزلوا على حكمه، ولم يستثن المرسلين. إن قمع الغريزة نزعة لم يعرفها رسل الله الكرام، إنما يضع لها الدين الحدود المنظمة. والإسلام – كما هو ظاهر في كتاب الله وسنة رسوله- ينظر إلى الإنسان على أنه لا يتجزأ، فالتشريع له في الدنيا والجزاء له في الأخرى، لا يفصل بين روحه وجسده.

**الإيمان بالغيب ليس إيمانا بالوهم ولا إيذانا بالفوضى**

الخواص من عقلاء المؤمنين أدق تفكيرا وأصدق أحكاما من أندادهم الملحدين، لأن العالم الملحد قد يحيط علما ببعض آفاق الوجود، لكنه يجهل أو يجحد الحقيقة الأولى فيه. بينما زميله المؤمن لا يقل عنه علما بهذه الآفاق، ثم هو يضم إليها معرفة حسنة برب الكون، ومصدر الوجود.

يقول المؤلف: رمقت الأجيال الأولى من المسلمين السابقين، فوجدتهم أنشط عقولا، وأسلم وجهة وأحكم سياسة من غيرهم. ولم يحدث بتة أن كان الإسلام قيدا على انطلاقهم الفكري، أو عائقا دون اقتحام المجاهيل المادية والأدبية. وكانت آيات القرآن الكريم باعثا هائلا على إحياء الموات الذهني والاجتماعي، وعلى سناها انطلق العقل الإسلامي الأول انطلاقته البعيدة المدى، فجدد ونقّى التراث الأول للإنسانية، ومهد وأعان على خلق حركة الإحياء في الغرب. بيد أننا نلحظ أنه – منذ عدة قرون- كبا هذا العقل كبوة خطيرة، كما نلحظ أن جماهير المسلمين قد أصابتها لوثات وعلل أزرت بقدرتها الفكرية، وحكمها على الأشياء.

لقد تضمن الإسلام حديثا عن عوالم أخرى غير محسوسة (عالم الغيب) وعلمنا بهذه الأجناس قاصر، المصدر الأول لإثباتها هو الدين. والمسلم يلتزم بما ورد فحسب. ومما يؤخذ على المسلمين في الأعصار المتأخرة خلطتهم بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

يقول: فنحن اليوم نصون الدين والعقل بنفي كل ما يشيع بين العوام من ترهات في هذه المجالات: كاستحضار الجان، وتصديق السحرة والمشعوذين، وخلط المعارف الطبية بأعمال الشياطين الخفية، وحساب الجمل، والطوالع؛ كل ذلك لا صلة له بالدين. فلم تتلوث الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي بهذه الأوهام إلا في عصور التخلف وغفلة الفقهاء، ويستحيل أن ترقى أمة يسودها هذا الفكر المكذوب. والذي يهمنا هنا أن نقول: إن كل ما ينيم التفكير أو يخمله يستحيل أن يكون من الإسلام. وإذا لم يفلح الدين في شد زناد الفكر والشعور إلى أبعد مدى مستطاع فحقيق به أن ينهزم، وحقيق بأتباعه أن يبيدوا.

**الهجرة إيمان بالمستقبل وثقة في الغيب**

يقول المؤلف: نحن في عالم يسوده المنطق المادي، ويعد المحسوسات وما يتصل بها هي الوجود الذي لا وجود وراءه!

وجمهرة البشر أخذت تستكين لهذا التفكير، وتبني عليه سلوكها في الحياة، وفرحها أو حزنها لما يصيبها من نعماء وبأساء.

إنّ الإيمان بالغيب قسيم للإيمان الحاضر. ولا يصح تدين ما إلا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله، مثلما يتعلق بما يرى ويسمع في هذه الدنيا.

ويقول: والغيب الذي أقصده هنا وما يتصل بالسلوك الإنساني المأنوس لنا، أي ما ننبعث عنه في كفاحنا القريب لبلوغ ما نحب وإقصاء ما نكره!!

إن النصر على الأعداء غيب، وخصوصا إذا وهنت الوسيلة، وقل العون، وفدحت العوائق. ولكنّ الإيمان بهذا النصر المأمول ينبع من الإيمان بالله جل شأنه، ومن ثم فالمجاهد الموفق يمضي في طريق الكفاح المر، وهو واثق من النتيجة الأخيرة!

فإذا قال الله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فإن الجماعة المؤمنة لا تهولها وعثاء الطريق، وضراوة الخصوم، وكآبة الحاضر.

كان المسلمون قبل الهجرة يملكون أنصبة وافرة من الإيمان بالمستقبل. يعتقدون معها أن دينهم لن يُغلب- وإن ضعف اليوم حملته- ويؤدون فرائض الجهاد والبذل وهم راضون عن ربهم، راجون ما عنده.

**التصوف الذي نريده- حقيقة وشريعة!**

يقول المؤلف: مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون، عملا وتأملا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب. ولابد أن يكون من بين العلوم، علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التي تحجب المرء عن ربه، وتلصقه بالتراب، أو التي تهتم بأشكال العبادات ولا ترتبط بمعناها وحكمتها..

ما يكون اسم هذا العلم؟ لا يهمني ذلك، لنسمه التصوف، أو لنتخير له ما نستحب من عناوين.. فالأمر سواء.

لكن يبقى السؤال الذي نريد الإجابة عنه:

كيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة ويصفي السرائر من كدرها.

كيف نجعل المرء مشتاقا إلى ربه؟

كيف يشهد المرء ربه في مجال السماوات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة سكون على امتداد الزمان والمكان.

فأي العلوم اكترث بهذه الأسئلة وطال نفسه في الحديث عنها؟

إن المتصوفة- برغم شطحاتهم وغلطاتهم- هم الذين أفاضوا في هذا الحديث.

إن شر ما يصيب المتدينين هو تحول الطاعات إلى عادات تؤدى في غيبة العقل وغفلة الشعور. إن الناس في عصرنا هذا فتنتهم الحياة وضراوتها العاجلة، وتعلقوا بها تعلقا سدّ عليهم منافذ النظر إلى كل شيء آخر أسمى وأخلد. وإن الدين الذي تهفو إليه الإنسانية ليست جملة معارف يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها. إنه إلى جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهي يروي ظمأ الروح إلى الرضا والتسامي.

**حقيقة وشريعة**

إن الله شرع الدين موضوعا وشكلا، معنى ولفظا، يقظة نفسية، وحركة بدنية، فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن فهو يعبث بالدين، ويتخذه لهوا ولعبا.

مطلوب من المصلي إذا وقف بين يدي الله أن يعرف من يناجي، فإذا قال: "الله أكبر" كان شعوره في حضرة الكبير المتعال عاصما له من الالتفات إلى غيره، ومحرما عليه الاشتغال بأمر دونه، وهذا سر تسمية افتتاح الصلاة بتكبيرة الإحرام.

مطلوب من التالي للوحي أن يفك أغلاق قلبه، فإذا نودي سمع، وإذا أبصر رأى، وإذا استثير نشط. العلاقة بالله- على الحقيقة لا على التجوز- تطلب البعد عن آفتين: الوهم أو الخيال، والتمثيل أو التصنع.

هذه هي الحقيقة التي تحدث عنها علماء التصوف ورجال التربية- لا دلالة لهذه الكلمة غير ما قلناه: أن يلتزم المسلم بشريعته مبنى ومعنى، أن ينفعل بتعاليمها لبا وقلبا وجسدا، أن يرقى إلى مستواها فكرا وعاطفة وسلوكا. لا تعريف للحقيقة غير هذا. ولبعض الصوفية كلام متهافت يوهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر.

**صدق في المعرفة ووحدة الوجود**

درجات المؤمنين في معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد.

ولا تقبل هذه المعرفة- ابتداء- إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع.

فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح كالشرك أو التجسيد ردت في وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئا. والمعرفة الصحيحة مراتب: فالذي يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة.

والمعرفة الموقنة غير المعرفة الكسول الوانية.

والمعرفة العاصمة غير المعرفة المنهزمة.

والمعرفة المورِّثة للتوكل على الله في مواطن القلق والفزع غير المعرفة التي تجعل المرء ضارعا للخلق ذليلا أمام أصحاب الحول والطول.

والأساس العقلي للشعور بوجود الله يقوم على ما تقرر في علم التوحيد من أن أقسام المعلوم ثلاثة: "واجب"، و" مستحيل"، و"ممكن".

فالواجب يستحق الوجود في ذاته ولا يتصور عدمه.

والمستحيل يستحق العدم من ذاته ولا يتصور وجوده.

والممكن ما لا يستحق من ذاته عدما ولا وجودا، وإنما يستمد وجوده إن وجد، من واجب الوجود وحده. والعالم كله، ما نعرف منه وما لا نعرف، ما نبصر وما لا نبصر، من هذا القسم الأخير.

**وحدة الوجود خرافة!!**

إن الشعور بالوجود الإلهي يجب أن يكون حيّا غامرا لدى أولي الألباب.

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الموجد هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتبا وبعث رسلا.

إن القول بوحدة الوجود هو- عند التأمل- نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها..

إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله.

وفلسفة وحدة الوجود أو خرافة وحدة الوجود تفكير هندي قديم، والقوم يتصورون هذا العالم أزلي أبدي، وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى.. وقد تكون أجساد حيوانات- وان قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور، وتبدأ من حيث تنتهي. وهكذا دواليك إلى ما شاء الله. والله في أوهامهم- هو هذه العمليات المتكررة. والغريب أن هذه الوحدة الموهومة قد تسللت إلى بعض الديانات السماوية.

**بين التصوف الإسلامي والتصوف الأجنبي**

الموضوع الفريد الصحيح للتصوف الإسلامي يتكون من ثلاثة عناصر:

أولها: جعل الإيمان النظري شعورا نفسيا غامرا.

ثانيها: تهذيب النفس، حتى يكون الإنسان مستجمعا للفضائل، متنزها عن الرذائل، حتى يرقى لقبول الله ورضوانه.

آخرها: النظر إلى الوجود الصغير في هذه الحياة على أنه جزء من الوجود الكبير الممتد بعد الموت.

والتصوف نزعة إنسانية عامة، تلتقي فيها الطبيعة النفسية لبعض الناس مع طبيعة الإيمان العميق بأي دين.

والأرض مليئة بالمخطئين الذين يظنون أنفسهم على صواب؛ ومن هنا وجدنا متصوفين بين الهنود الذين يعبدون آلهة شتى. ومتصوفين بين أهل الكتاب الذين خلطوا إيمانهم بالشرك. فالتصوف المسيحي-مثلا- المستمد من تعاليم الإنجيل الحالي مختلط يقينا بالحلول والتعدد.

ولكن التصوف الإسلامي الصحيح، في صورته المقبولة، لا يعدو أن يكون مزيدا من الصلة بالله والاعتصام به والتبتل إليه. وهذا الفضل الملحوظ يجعل العابد عاشقا للصلاة، آلفا للصيام، بذّالا للمال، متحليا بالفضائل، نافرا من الدنايا، متحمسا للحق، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، متحققا من مطالب النفس، متكبرا على إغراء الدنيا، متبذلا شخصه في خدمة الأمة وإبلاغ الرسالة وهداية الخلق، متتبعا لشعب الإيمان كلها يقيمها في نفسه وفيما حوله.

والناس يتفاوتون في ذلك سبقا واقتصادا، وضبطا للعاطفة واندفاعا معها. غير أن التصوف بعد أن طال عليه الأمد اختلط بأحوال كثيرة، وتسللت إليه الأفكار ذاتها التي تسللت إلى النصرانية من الوثنية الهندية، حتى إن البعض آثر الإعراض عن هذا التراث كله؛ لكثرة ما طفح في كتب القوم من دخيل وأباطيل. لكن الإسلام لا يستغني عن التربية القلبية والإيقاظ العاطفي للنفس الإنسانية.

**ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة**

الثقافة التقليدية- وهي التي تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها- مسؤولة عن القصور الذي يواجه به المسلمون الحياة؛ لأنها تنقص عناصر لابد منها لتكوين الغذاء العقلي المطلوب للجماهير. ولأنها تضمنت جملة من التصورات والأحكام المعيبة، ولأن ما بها من حقائق مازال يعرض العرض المنفر، أو يفسر التفسير الناقص. وذلكم هو السر الأول في تخلف العالم الإسلامي خلال الأعصار الأخيرة تخلفا جعل الأوربيين- منذ عصر الإحياء – ينفردون تقريبا بقيادة القارات الخمس.

وعندما نلقي نظرة على الأمة الإسلامية الكبيرة- وهي الآن مجموعة من الشعوب المتخلفة- نجد أن تقهقرها في الحياة يعود إلى أنها معزولة روحيا عن ينابيع ثقافتها الصحيحة، وأن العوج الذي لابس معرفتنا الدينية يكمن وراء هذا التخلف. ذلك إلى جانب التمرد على جملة من التعاليم النافعة البيِّنة. وإنه يستحيل أن تنجح رسالة ليس لأهلها تمكين في الأرض، وخبرة بعلومها وأحوالها.

يقول المؤلف:" وعندي أن وزر ذلك يحمله عدد من مفسري القرآن وشراح الحديث إلى جانب جمهرة المتصوفين والمتكلمين".

إن فساد التصوف جزء من الفساد الذي لحق جملة العلوم الدينية، وفي مقدمتها الفقه، والكلام، والتفسير، والحديث.

وانحطاط التعليم الديني في هذه المجالات هو المسؤول عن تكوين أجيال ضيقة الأفق بيّنة القصور، لا تتقدم بها دنيا ولا ينتصر بها دين.

ولعل أفضل التفاسير ما كان ترجمة لمعاني القرآن المجردة وحقائقه العارية. وكم في السُّنة من كنوز روائع تنتظر من يجليها وأن نضعها في نسق رتيب مع دلالات القرآن الرقيبة والبعيدة.

ولو كان متصوفة اليوم راشدين لجعلوا الاستماتة في العمل والكفاح رد فعل من جانبهم لبلادة العوام، كما جعل أجدادهم الزهد رد فعل لترف الحكام وحواشيهم.

ومعنى ذلك أنه لا وقت ولا مكان لسلخ مشكلات ثقافية عن ملابستها السابقة وعصورها القديمة، وشغل الأذهان بها في هذه الأيام.

إن الثقافة الإسلامية، في سياسة الحياة والأحياء، في تربية النفوس والضمائر في تأسيس العلاقات والروابط، يجب أن تعود إلى ما كانت عليه أيام صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، ومن استمسك بعروتهم من الأئمة والمخلصين والعلماء المثقفين.

**وصية جعفر الصادق لأحد المريدين**

كان تنقّل أهل البيت في أقطار الأرض، إثر ما وقع عليهم قديما من حيف، سببا في انتشار العلم، وانتفاع الجماهير بما يقتبسون من سيرتهم العطرة. وفي العصر الأول ذهب الإمام جعفر الصادق إلى مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعتزل بها من الفتن، ويبتعد بدينه عن مؤامرات السلطة وإرهاب العباسيين. وما إن سمع الناس بمجيئه حتى هرعوا إليه ابتغاء التعليم والاقتداء، ومن بين الذين قصدوه رجل مسن اسمه "عنوان" بلغ أربعا وتسعين عاما. وكان من وصايا جعفر الصادق له:

إذا أردت العلم فاطلب في نفسك أولا حقيقة العبودية. واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يُفْهمْك. وحقيقة العبودية ثلاثة أشياء: ألا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك. ويجعل اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه. ولا يدبر العبد لنفسه؛ قال المؤلف: " قد يصيب الإنسان – مع حذره- مآس لم تكن في الحسبان، فيستغرب كيف تسللت إليه تلك الآلام مع شدة الحيطة... وفي مثل هذه الحالات ينبغي التسليم لله، والتفويض إليه فيما قضى"(انتهى).

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكا هان عليه الإنفاق فيما أمره الله أن ينفق فيه. وإذا فوض العبد تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا. وإذا اشتغل العبد بما أمره الله ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس. فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق.

وأوصيك بتسعة أشياء هي وصيتي لمريدي في الطريق إلى الله تعالى: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة في الحلم، وثلاثة في العلم.

##### أما الثلاثة التي في رياضة النفس: فإياك أن تأكل مالا تشتهيه، فإنه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالا، وسمِّ الله، واذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِه حسْبُ ابنِ آدمَ أُكلاتٌ يُقمْنَ صلبَه فإن كان لا محالةَ فثُلثٌ لطعامِه وثلثٌ لشرابِه وثلثٌ لنفسِه.

##### وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا، فقل له: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل له: لئن كنت صادقا فيما تقول: فأسأل الله تعالى أن يغفر لي. ولئن كنت كاذبا فيما تقول، فأسأل الله أن يغفر لك. ومن توعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء.

##### وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة.. وإياك أن تعمل برأيك شيئا. قال المؤلف: " والرأي الذي ينهى عنه جعفر الصادق عن العمل به، هو الهوى والابتداع، واستحداث ما لا أصل له في دين الله"(انتهى). واهرب من الفتيا هروبك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسرا.

**فن العزلة والاختلاط**

يقول المؤلف: في هذا العصر اختفت تقريبا المذاهب الداعية إلى الانطواء على النفس والعزلة عن المجتمع. ونحن راضون عن هذا الاتجاه الجماعي الودود؛ فإن الانكماش عن الحياة العامة ليست شارة صلاح ولا طريق إصلاح، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام، أو نشدانا للراحة مع ترك الدنيا تموج بما تموج به. ورسل الله لم يتركوا الجماعات البشرية تسير حبلها على غاربها ويقبعوا في صوامع قصيَّة يتأملون ويتألمون! كلا..

ومن ثم فإن العباد العاكفين على طاعة الله في قمة جبل أو في جوف غابة يطالعون من بعد غبار المعركة بين الحق والباطل، أو ييأسون من نتائجها ويسترجعون من متاعبها.. هؤلاء في الحقيقة ناس واهنو العزم والإيمان هابطو المكانة في الدنيا والآخرة. بل ربما لقي بعضهم الله بإثم الفار من الزحف أو القاعد وراء المجاهدين. ونقرر أن المرء تمر به فترات يحتاج فيها إلى أن يخلو بنفسه وينأى عن الناس بجانبه، ويراجع في صمت العزلة ما له وما عليه، ما أحسن وما أساء.. ما يفعل وما يترك..

وقد استحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه – رضوان الله عليهم- أن ينسحبوا بين الحين والحين من مشاغل العيش ومشكلات الأهل والولد، وأن يفروا إلى الله في بيته ويعكفوا على عبادته. ليستعينوا بذلك على جهادهم الدعوي، ومخالطة الجماهير الشكسة النافرة.

وقد مضت السنة باستحباب اعتكاف المؤمنين في العشر الأواخر من رمضان، وجعلها الإسلام في إطار المسجد، حتى لا ينهي صلة المسلم بالجماعة.

**ينابيع التوحيد**

جاء في السنن أن الباقيات الصالحات هي: " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"؛ لأنها أوصاف لذات الله تعالى. فهي تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، ومباعدته عن كل عيب، فلا يستشعر الإنسان مع ذات الله إلا كل جلال وجمال. والمؤمن هو الذي يحس ذلك ويألفه. والتسبيح العملي للناس يقوم على ربط الأفعال بما ينبغي لله من كمال. ذلك أن الصغار قد تفرض عليهم طباعهم الصغيرة أن يسيئوا الظن بالله، فيتصوروا فيه أن يخلف وعده أو يحيف على عباده!! ويدفعهم هذا التصور المريض إلى اقتراف ما لا يليق، ولو حسنت معرفتهم بالله ونزهوه عما تخيلوا نسبته إليه، لكان عملهم أصلح وسلوكهم أرشد.. فإذا تحول التسبيح من قول باللسان إلى شعور في القلب، إلى رفعة السلوك ان يضبط المسلم مشاعره في السراء والضراء، ويربطها بمشيئة الله، فإن أصابه شر لم يسخط على الزمان ويسب الأيام!!

إن الشعور بعظمة الله وقدرته الواسعة، وعلمه الشامل، وكرمه الرحب، وعفوه الجميل، ومودته لخلقه، وبره بهم.. إن ذلك كله يفعم القلوب بالولاء ويطلق الألسنة بالثناء..

## إن طول الصبر وإدمان الذكر والاستغفار ثناء معنوي ناجع في مكافحة الخصوم، ومعاناة جهادهم ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

## وكلمة الإخلاص هنا- وهي كلمة لا إله إلا الله- هي الحادي الذي لا يمل نداؤه. ولا يتلاشى صداه.. وعندما يردها المؤمن فهو يقصد أمرين: أولهما: إخفاق الحق وإبطال الباطل؛ فإنه لا يوجد غير إله واحد هو الله الواحد القهار. والآخر: ضبط السلوك البشري، داخل نطاق هذا التوحيد؛ فيكون استنصار الإنسان بالله، واسترزاقه وتوكله وأمله وأمنه وغير ذلك من المعاني.

ويجب أن يشعر المسلم من أعماق قلبه أن ما دون الله هباء، فلا ترعه سطوة سلطان، ولا تخدعه ثروة غني. وليثق أنه من المستحيل أن يغلب الله على أمره، أو أن يُقطع شيء دونه، فالتعلق بغيره عجز، والتطلع إلى سواه حمق ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. إن التوحيد المطلق هو لباب الرسالات السماوية كلها، وهو عمود الإسلام وشعاره الذي لا ينفك عنه، وهو الحقيقة التي ينبغي أن نغار عليها ونصونها من كل شائبة.

وعلى هذه العقيدة الجليلة بنى محمد أمته، وأقام دعوته، وأنشأ جيلا يثق بالواحد الحق، ويبرأ من الشركاء المزعومين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعبد البشر، وأعرفهم بعظمة الله جل جلاله.

**نبوة وكتاب وأمة وارثة**

النبوة هبة لا كسب، فضل يتنزل من الله لا شأو يسعى إليه البشر..

## والأنبياء قبل أن يبعثوا لا يخطر بأنفسهم شيء عن مستقبلهم المغيب، ولا يتشوقون إلى وحي، أو يرتقبون مجيء ملك. وقت الاختيار الأعلى، ومكانه ليس إليهم في قليل أو كثير، وقد جاء في القرآن الكريم هذا الخطاب المبين ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. وكل ما يقال في أشخاص الأنبياء أن معادنهم النفيسة والفكرية لا بد أن تكون من طراز يكافئ الوظائف الجسام التي توكل إليهم، وأن حياتهم الأولى تمهيد صالح لما يوشك أن يظهر على أيديهم ويربط الأمم بهم.

والأربعون سنة الأولى من حياة محمد، عليه الصلاة والسلام، جاءت على هذا الغرار..

إن محمدا خلت فطرته من شهوات الأرض وأكدار الدنيا. انتشرت في أرجائه الباطنة شعاعات الوحي، فهي تبرق في شمائله ومسالكه، كما تتلألأ الآفاق في صحوة صافية.. وقد أومأت السيدة عائشة إلى هذا المعنى عندما سئلت عن خلق رسول الله، فقالت: كان خلقه القرآن.

إن أشخاص الأنبياء ليست جسورا لهدايات السماء وحسب، كلا، إنهم ترجمة عملية لمراد الله من خلقه. ورسالة الإسلام لا يحصرها زمان ولا مكان، ولا تحتبس في أفق من أحوال البشر وتدع أفقا آخر. وهذا الشمول في سور الكتاب، وسنة الرسول، وعمل الأصحاب.

ووسيلته الفذة أمة من الناس خلقها القرآن، تفقهه نصوصا، وتستنبطه شمائل، وتقيمه شرائع وشعائر.

تتعلم من رسولها ما تعلمه هذا الرسول من ربه، ثم تقدمه للناس علما وعملا! تلك وظيفة الأمة الإسلامية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

## إن أمتنا ورثت منصب الرسالة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنها ورثت الكتاب الذي جاء به ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وواجبها الأكبر، بل لب وجودها أن تقود باسم الله قافلة البشر قيادة تحفظ على العالم الهدى والتقى والعفاف والغنى، وتقي حضارته الزيغ والأثرة والعدوان والضر. ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾. ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. لقد ورثنا النبوة والكتاب، ترى هل سنسعد بهما ونسعد العالم معنا أم ماذا؟!

**محمد رحمة للعالمين**

لقد كانت بعثة محمد رحمة عامة؛ لأنها أهدت إلى البشر جملة الحقائق التي يفتقرون إلى معرفتها واستصحابها، فوفرت عليهم عناء التيه في دروب من الباطل لا حصر لها.. ألم تجعل الحق في متناول اليد؟ والنفع المنشود ميسورا في العاجلة مضمونا في الآجلة؟

فالحقائق التي تضمنتها الرسالة الإسلامية تمتاز بالشمول والوعي. فبعثة محمد كانت ميلادا للحق في أبهى صوره وأزهى أشعته. وكانت بعثته رحمة عامة، فكانت إنقاذا من الإلحاد وعواقبه الشائنة، لأنها عرّفت الناس بالله على أصدق وجه وبأقوى دليل.

يقول المؤلف: " ولم أعرف- فيما قرأت- بشرا مثل محمد، وجَّه الفكر الإنساني إلى العلم بالله، وملأ القلب الإنساني بالخشوع لله، ثم عن طريق العلم والأدب شرح قضية الوجود، ووظيفة المرء في الحياة، شرحا عامرا بالصدق والجمال. تلك أولى آيات الرحمة العامة.. يلي ذلك العمل والسلوك؛ فإن محمدا الإنسان الكبير جاء إلى الأجناس كافة بدين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم".

وتتجلى الرحمة التي اقترنت بها رسالة محمد في أسلوب التعامل الذي وضعه الله للناس بعضهم مع بعض. إن بعثة محمد فجرت ينابيع الرحمة بين الناس بالأصول التي قامت عليها، والتعاليم التي غرستها، فماذا قدمت للناس حضارة الغرب في أزهى العصور وأرقاها معرفة؟ شتان بين هذه الحضارة، وحضارة يقال لمؤسسها النبيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

**حول احتفال المولد الشريف**

الاحتفال بميلاد محمد، صلى الله عليه وسلم، ليس كالاحتفال بميلاد أي إنسان آخر. إنه القائد الروحي والفكري لمواكب الأحياء ما بقي الليل والنهار. وسيرته قدوة ترمقها بصائر المؤمنين في كل وقت وتستمد منها طهارة القلب من الإثم وطهارة العقل من الخرافة.

## واسم محمد لا يذكر مرة في كل سنة عندما يحتفل بميلاده، كلا، فهو يذكر في كل أذان وفي كل صلاة. إن محمدا قدوة دائمة لأتباعه، وأسوة حسنة لمن يحبون الله ويرجون رحمته. ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

## يقول المؤلف: " من أجل ذلك نحن نرى أن الاحتفال بمولد محمد ليس إلا فرصة لتوكيد الولاء له والاحترام لتراثه والاستمساك بتعاليمه والرغبة العميقة في نفع العالم بها. لقد كان ظهور محمد بالرسالة مفاجأة له وللناس على السواء، فهو لم يتطلع لهذا المنصب ولا استشرف له. وفي هذا المعنى يقول لنبيه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾. وهذه الكلمات القرآنية تشير إلى أن محمدا تجرد من كل معاني الغرور والكبرياء. إنه عبد الله فقط، رسالته تقوم على إفراد الله بالعظمة والجلال، والتقرب إليه، جلَّ شأنه، بصدق الإيمان وصالح العمل. وهو أرفع الناس مكانة وأزكاهم خلقا، وأعرفهم بحقوق الله، وأسرعهم إلى مرضاته ونفع عباده. والثناء على محمد ينبجس من ينبوع الثناء على ربه، فهو تقرير حقيقة، وشكر جميل.

**أشرف وظائف المرأة**

التلطف مع الإناث، والرفق بهنّ، آية اكتمال الرجولة ونماء فضائلها. وهو ادب يبذل للنساء عامة. ومع استقامة الفطرة الإنسانية قلما يتخلف هذا المسلك العالي.

والغربيون يترجمون هذا الإحساس بتقديم المرأة على الرجل في الخطاب، وتقديمها عليه في الدخول والخروج والجلوس وغير ذلك. وهو ضرب من المعاملة ظاهره الإيثار، وإن كان باطنه مثقلا بالأوزار.

يقول المؤلف: " ونريد أن نتأمل في أساليبنا- نحن العرب والمسلمين- مع المرأة، وأن نقابل بين ما انتهى إليه الإسلام في هذا الشأن، وما وصل إليه مفكرو الغرب، ونَقَدَة الحضارة الحديثة. ومن الخير أن ننفي أولا زعما شاع بين الناس أن العرب في جاهليتهم كانوا يهينون الأنثى، ويغمطون مكانتها. نعم، هناك سفهاء صنعوا ذلك. أما احترام العرب لنسائهم فجاء ثمرة نضج الذكورة، وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة".

ووظيفة" ربة البيت" من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار. أليست هي حضانة الأجيال الجديدة وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتا حسنا؟ إن تصور المرأة في البيت إنسانا قاعدا لا شغل لها جهل شنيع بمعنى الأسرة.. ولولا أن بعض النساء يغرفن بفطرتهن الذكية وظيفة المرأة تجاه أولادها ورجلها لاشترطنا لهذه الوظيفة مؤهلات نفسية وعقلية معينة.

وجاء الإسلام العظيم، ومسّت رحمته حياة المرأة، فحرر إنسانيتها روحا وجسدا حين أتاح لها أن تتزود من العلم ما تشاء. وحصَّن حقوقها المالية، وربطها برسالة الأمة الكبيرة ودعوتها العامة. والإسلام يعرف المرأة قبل كل شيء ربة بيت وزوجة بطل وأم شهيد.. ويرفض تجنيد النساء للترفيه كما فعلت أوروبا.

إن رائدات النهضة النسائية في بلادنا يردن أن تكون المرأة(رجلة) تتولى عملا في المجتمع في هذه الاعمال التي تليق بالجنس الخشن، ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها بشيء طائل. وعندما يقال لإحداهن: تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل، وتنشئة الذرية الوافدة، يتورم أنفها ضيقا وغيظا.

لقد أثبت الطب الحديث أن تكوين المرأة العضوي يتناسب تماما مع الوظائف التي خلقها الله من أجلها كأنثى. فالمرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل؛ فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. إن انسلاخ أحد الجنسين عن فطرته ليلحق بجنس ليس منه- حرب على الطبيعة، والتواء بالأمور عن مجراها الصحيح، ولن يفيد العالم من ذلك إلا الخلل والفساد.

يقول المؤلف: " ومع رفضنا للنزعات المادية الواقعة في هذا الخطأ؛ فنحن أحيانا نلتمس عذرا لأصحابها!

كان يجب أن نهدي الثناء إلى المدنية الحديثة لو أنها- حين اعترفت بإنسانية المرأة- دعمت جانبها الضعيف وحفظت حقوقها المهدورة، وردت عنها عدوان من ضنوا عليه بالعلم والمال، والإسهام بحظ واضح في رعاية المصالح الخاصة والعامة؛ لكن المدنية الحديثة، وشارتها الأولى عبادة الحياة- أدخلت المرأة في المجتمع بطريقة مريبة! فبدلا من أن تحصن أنوثتها ضد العبث تعمدت إطلاق الجانب الحيواني في البشر، وجعلت من انوثة المرأة فتنة تبعثر الإثم في كل مكان.

إن الإسلام كان غافيا في بلاده، محتبس الضوء بين حكام الجور، وعلماء السوء، وعبادة الغفلة!! ومن ثم انطلقت المدنية الحديثة في طريقها تطلب اللذة على ظهر الأرض من كل سبيل، وترى المرأة أولى هذه اللذات التي ينبغي أن تشيع فتتملاها كل عين.. وتلمسها كل يد.. ومع الأسف؛ فالمدنية الحديثة تفرض نفسها على القارات الخمس، ويكافح بعض المسلمين في جو مربد؛ لينقذوا أقطارهم من هذا الشرود الجنسي الطافح، ولكنهم إلى يوم الناس هذا يحاربون في معركة انسحاب!".

**خوارق العادات.. معناها ودلالتها**

الخرافيون من الناس آفة الأديان وآفة الأخبار في كل زمان ومكان..

والحديث في خوارق العادات اطرد في الديانات كلها، ولم يعرفه المسلمون وحدهم. وإنه- كما قرر الإسلام- متطوع الدلالة على الخير أو الشر. أي أن الإيمان الصحيح والعمل الطيب هما وحدهما دليل الخير. وأن جريان الخوارق لا يرفع خسيسة امرئ ضعيف اليقين رديء العمل. إن خوارق العادات قد تقع للموحِّد والمثلِّث، بل للمؤمن والمعطِّل، ومن ثم فإن الاستدلال بها على كرامة شخص ما خطأ بالغ. إننا نؤمن بما حدّث به رب العزة، ونصدق ما صحَّ عن رسوله، إن صحّ الدليل على نسبته. أما ما يتداوله الناس بينهم من قصص وقعت أو لم تقع، فلا علاقة لديننا برأينا فيها، ومزاعم الدهماء في تلك القضايا لا وزن لها.

**من مزاعم الروحية الحديثة**

عند بعض المتدينين طيبة تبلغ حد السذاجة، وإيمانهم بالغيب- إذا تجاوز حدود الكتاب والسنة- قد يكون ثغرة تنفذ منها الأساطير، وتضار بها حقيقة الدين.

وقصة تحضير الأرواح التي شاعت في عصرنا هذا قد اكتنفها أوهام شتى، وسرت في ركابها أفكار ينكرها الإسلام.

إن بقاء الأرواح بعد الممات عقيدة لا ريب فيها، وهي عقيدة جميلة مشرقة. وأكثر الناس- في هذا العصر- يظن الموت مرادفا للبلى والفناء، وتهديد العهد بالإحساس والحياة والضياء! وهذه الأفكار من نضح المادية التي تسود عالمنا الأرضي. أو هي من بقايا الجاهلية الأولى في فهم الوجود وقضية الخليقة. والدين ضد الأوهام، ونصوصه جازمة بأن الآخرة حق، وأن الموت نقلة من عالم إلى عالم، ومن وجود مستيقِن إلى وجود مستيقَن! والإسلام قاطع في أن ميدان العمل الإنساني هو هذه الحياة الدنيا. وأن المرء- في فترة الأجل الموقوت له- يبتلى بفنون التكاليف، ويتعرض لامتحانات شتى، وأن نجاحه وسقوطه يتقرران جميعا عند انتهاء عمره على هذه الأرض! وهو بالموت مباشرة يبدأ مثوبته أو عقوبته! والأرواح بعد الموت يستغرقها الجزاء المقدور لها على ما قدمت في حياتها الأولى! وتصور أنها تستأنف العمل بعد الموت في ميدان ما بيننا نحن الاحياء تصور معتل منكور، لا صلة له بالدين ولا يعتمد على إثارة منه. فكيف بعد تعاليم الإسلام الواضحة- على ما أسلفنا- يجيء قوم فيزعمون أن الأرواح تعمل بعد الموت، وأنها تشتغل بالطب والتعليم حينا، والتسول والاعتداء حينا. إنها مجموعة خرافات نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء، وأن من أوحى بها ليسوا أرواحا هادية، وإنما هم مردة الجنِّ.

**ثمرات الكتاب وفوائده**

* يجب أن تتاح فرص كثيرة للدراسات النظرية التي تجعل " الإنسان" موضوعها الفذّ. إن هذه الدراسات ينبغي أن نتوصل بها إلى إثبات الإيمان الحق.
* إن كل تدين يجافي العلم، ويخاصم الفكر، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة، هو تدين فقد صلاحيته للبقاء.
* لو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصيب كريم في ميدان" علم الإنسان" ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحي.
* الدين هو النهج الفذ الذي يحدد للإنسان وظيفة في الحياة، ويسمو به عن الدنايا، ويدربه على الفضيلة، ويرشحه لرضوان الله، ويخلده في رحمته.
* لا نرتاب في أن المستقبل للإسلام، يوم يعرض على الناس نقيا كما جاء من عند الله، ويوم يرى الناس أمة تحيا به ظاهرا وباطنا، وتقدم من سلوكها الأسوة الحسنة والتطبيق الصحيح.
* وحدة الوجود خرافة تسللت إلى بعض الديانات السماوية. ووحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد؛ إذ هي نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها.
* نحن اليوم نصون الدين والعقل بنفي كل ما يشيع بين العوام من ترهات في هذه المجالات: كاستحضار الجان، وتصديق السحرة والمشعوذين، وخلط المعارف الطبية بأعمال الشياطين الخفية، وحساب الجمل، والطوالع؛ كل ذلك لا صلة له بالدين.
* إنّ الإيمان بالغيب قسيم للإيمان الحاضر. ولا يصح تدين ما إلا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله، مثلما يتعلق بما يرى ويسمع في هذه الدنيا.
* إن الدين الذي تهفو إليه الإنسانية ليست جملة معارف يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها؛ إنه إلى جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهي يروي ظمأ الروح إلى الرضا والتسامي.
* الثقافة التقليدية- وهي التي تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها- مسؤولة عن القصور الذي يواجه به المسلمون الحياة.
* إن العباد العاكفين على طاعة الله في قمة جبل أو في جوف غابة (وقس على ذلك النظير والمشابه) يطالعون من بعد غبار المعركة بين الحق والباطل، أو ييأسون من نتائجها ويسترجعون من متاعبها.. هؤلاء في الحقيقة ناس واهنو العزم والإيمان هابطو المكانة في الدنيا والآخرة. بل ربما لقي بعضهم الله بإثم الفار من الزحف أو القاعد وراء المجاهدين.

## إن طول الصبر وإدمان الذكر والاستغفار- ثناء معنوي ناجع في مكافحة الخصوم، ومعاناة جهادهم ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

* النبوة هبة لا كسب، فضل يتنزل من الله لا شأو يسعى إليه البشر.
* كانت بعثة مجمد صلى الله عليه وسلم- رحمة عامة، فكانت إنقاذا من الإلحاد وعواقبه الشائنة، لأنها عرّفت الناس بالله على أصدق وجه وبأقوى دليل.
* الاحتفال بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ليس إلا فرصة لتوكيد الولاء له والاحترام لتراثه والاستمساك بتعاليمه والرغبة العميقة في نفع العالم بها.
* وظيفة" ربة البيت" للمرأة من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار.
* الخرافيون من الناس آفة الأديان وآفة الأخبار في كل زمان ومكان. وقصة تحضير الأرواح التي شاعت في عصرنا هذا قد اكتنفها أوهام شتى، وسرت في ركابها أفكار ينكرها الإسلام.